مشكلة التسوّل

لحضرة صاحب السعادة الدكتور سليمان عزمى باشا
عميد كلية الطب

إن الشعب المصرى الكريم شعب محسن غاية الإحسان، ولكنه لاينظم إحسانه وتوزيع صدقته وزكاته، والمسلمون منه يحبون الإحسان أسوة بالنبي الكريم الذى كان أجود مايكون متبعا قوله تعالى : (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) وقوله تعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) .

ولمناسبة قيام الحكومة بمنع التسوّل رأيت الفرصة مناسبة جدّا لأن أتحدث فيها عن هذه المشكلة لعلى أوفق إلى الغرض الذى أقصده وهو توجيه الشعب المصرى الكريم إلى تنظيم إحسانه. وسأعرض أثناء الحديث بعض النقط الهامة فى نظرى على الرأى العام ليناقشها حتى يزيد الموضوع جلاء ووضوحا أمام القائمين على شئون الأمة خصوصا وزارة الشؤون الاجتماعية.

فالمسألة خطيرة وتتطلب علاجا ناجحا فعالا لمنع التسوّل منعا باتا لارجعة فيه، ولا يمكن ذلك إلا إذا عولجت الأمور من مسبباتها واستؤصلت من جذورها ، لا علاجا صحيا مؤقتا لا يلبث أن يعود بعده التسوّل إلى ما كان عليه ، وذلك بمعالجة الفقر الذى نتج عن إهمال الناس وتعاونهم وعدم وضع أسس ثابتة صحية للاحسان تراعى فيها المصلحة الاجتماعية الدائمة .

* * *

والتسوّل كما هو عليه الآن فى مصر وصمة عار ظاهرة على القطر المصرى بأكمله حكومة وشعبا وهيئات خيرية وأفرادا ... حكومة، لعدم اتخاذ الوسائل لمنع أسبابه ونشكرها إذا أخذت في ذلك الآن — ولا شك عندى أن وزارة الشؤون الاجتماعية ستقوم بهذه المهمة خير قيام، رغما عن تشعبها واتساع نطاقها وصعوبتها — وشعبا وهيئات خيرية ، لعدم قيامها بشكل منظم بواجبها نحو البؤساء والفقراء للمساعدة على إيوائهم وتخفيف ويلاتهم ، وأفرادا ،

لإحسانهم على محترفى التسول والتساهل فى إعطاء القرش للسائل بدل اشتراكهم فى جمعيات خيرية لهـذا الغرض وبهذا التساهل يشجعون المتسولين ، ولا شك عنـدى أن المصريين سيقدرون هذه الظروف .

ومنع التسول أمر حسن وحسن للغاية ولكن كيف الوصول إليـه ؟ فالمشكلة ليست كغيرها تحل بمجرد إصدار قانون والاعتماد على تنفيذه بواسطة الإدارة والبوليس ، وهـذه الهيئات الخيرية فضلا عن قيامها بواجبها فانها مرهقة بكثرة الواجبات وتعددها .

ومما يساعد على منع التسول علاج الأمراض المضعفة للبنية المنهكة للقوى . وعلاج المدمنين على المخدرات وجود دور خاصة بالمصابين بالأمراض المستعصية والمزمنة و إنشاء ملاجىء للعجزة وذوى العاهات كافية لإيواء الفقراء وغير القادرين على الكسب وأمثالهم ، وكذا زيادة عدد الملاجىء الخاصة لإيواء الأطفال المتشردين وتعليمهم وتدريبهم على مهن يكتسبون منها ، و إيجاد عمل للعاطلين والاستمرار فى محاربة المخدرات . ولو عولجت الأمراض القابلة للشفاء وأعدت الأماكن الكافية لإيواء العجزة والمصابين بالأمراض الغير قابلة للشفاء و زيد عدد الملاجىء عامة وللأطفال خاصة لقل حتما عدد هذه الفئة من المتسولين . ولا بد أيضا من التفكير من الآن فى مشكلة العمال العاطلين قبل ظهورها .

ولو قمنا بعمل أطراف صناعية لمن بترت أرجلهم ونظارات لمن ضعف نظرهم ووجدت الدور للنقاهة ينتقل إليهـا المريض بعد تمام شفائه فى المستشفيات ليتغذى و يعتنى به فى جو صحى حتى يسترد قواه و يصبح قادرا على العمل ، لكان لذلك أطيب الأثر فى عدد لا يستهان به من المضطرين للتسول لفقرهم ومرضهم وضعف صحتهم وعدم مقدرتهم على الكسب من طريق آخر .

من هنا يتبين جليا بعض فوائد ومقاصد مشروع يوم المستشفيات الذى دعونا له هذا العام . ولنا فى نظام بعض الممالك الراقية أسوة حسنة . يلخص هذا النظام فى الاحتفاظ ببعض الحرف والمهن ، فالتجارة الخفيفة التى لا تتطلب مجهودا قويا لبعض ذوى العاهات الغير معدية والمصابين ببتر أو غير ذلك مما يجعلهم غير قادرين إلا على الأعمال التى لا تتطلب مجهودا بدنيا كبيرا .

ولو أدخل هذا النظام فى بلادنا وروعى العمل به أثناء إعطاء الرخص لساعد ذلك كثيرا على إيجاد عمل مربح لهذه الفئة .

هذه الفئة التى ذكرتها من المتسولين ممن اعتلت صحتهم وأصيبوا بالعاهات إلى آخره هم من اسميهم المضطرين إلى التسول مرغمين مكرهين كارهين و بعضهم بحكم الممارسة وتعود التسول يتحول إلى متسول محترف .

وأما فئة محترفى التسول فأعود قائلا أنهم آفة اجتماعية ووصمة أخلاقيـة ومثلهم كمثل المصابين بأمراض عقليـة أو نفسية أو شذوذ عقلى نفسى ... أقول ذلك لتماشى تسميتهم بالمتشردين أوالمجرمين ولكنى أجد نفسى مضطرا أن أسمى بعضهم بهذه التسمية لما أشاهده ممن يستهوون الأحداث ويدربونهم على التسول ويتسولون على ما يجمعونه من نقود وغيرها .

فهؤلاء مجرمون خطرون على الهيئـــة الاجتماعية يدعون أن التسول فن ، بدون أى خجل ... نعم أنه فن ، ولكنه فن مرذول قبيح . يقف هؤلاء المحترفون فى أماكن يختارونها لاصطياد المحسنين ومضايقتهم ، معتبرين أن تصنع العاهات فن ، وما ذلك بفن ، ولكنه احتيال تجب محاربته والقضاء عليه .

هـــذه الفئة من محترفى التسول يجب عزلها فى ملاجىء أو اصلاحيات خاصة كما يفعل بالأحداث ذوى النزعة الإجرامية والمتشردين منهم ، على أن يعاملوا باللين والرفق ، وعلى أن يدربوا على مهن وحرف يكتسبون منها ، وتلقى عليهم دروس وعظات على قدر ما يفهمون لإصلاح حالتهم النفسية والعقلية حتى يقلعوا تماما عن هذه العادة المرذولة ، ويعودوا تدريجيا إلى طريق الكسب الشريف .

إن بعض محترفى التسول يتحايل ليقلد عاهة مرضية يتظاهر بها أمام الناس استدرارا لعطفهم واستغلالا لشفقتهم ورحمتهم على البائسين والمرضى .

هؤلاء هم حقا مرضى العقول والنفوس ، ويجب اعتبارهم كذلك ومعاملتهم كمرضى وحجزهم وتعليمهم فى الاصلاحيات وعلاجهم .

وأما من كبروا وتأصلت فيهم عادة التسول ولم تنجح معهم هـذه الطرق الإصلاحية فليس لهم سوى العزل فى ملاجئ خاصة بهم .

وأما المجرمون منهم فلا رادع ولا وازع لهم سوى العقوبة .

* * *

وإن أتمت الحكومة هذا العمل بكل فروعه ونواحيه ، فإنهـا تسدى إلى مصر أكبر خدمة تستحق عليها أعظم شكر وأجل تقدير .

وعلى الشـعب أن يساعد الحكومة والهيئات الخيرية ، فيعطى ما يجود به إلى الهيئات الخيرية ولا يعطى للمتسولين ، وأن ينظم كل فرد منا إحسانه فيضع ثمنه فى جمعية بر ما ، يعتقد فى صحة أغراضها وسلامة إدارتها لتنوب عنه فى رعاية البائسين ، أو يساعد عائلة ما أخنى عليها الدهر إلى غير ذلك ، ليبرئ ضميره ويريحه بأنه قام نحو الهيئة الاجتماعية بواجبه نحو أخيه الإنسان البائس .

إنى أعلم علم اليقين، بوجود فئة صالحة محسنة، لاتعلم يسراها ما تعطيه يمناها . بل قلما نسمع عنهم ، يبرون البائس واليتيم والمحروم ومن أخنى عليهم الدهر ، ممن يحسبهم الجاهل بحالتهم أغنياء من التعفف — هـــذه الفئة الصالحة تساعد عن طيب خاطر فى أعمال البر والإحسان بدون أى تظاهر .

فإن فعلت ذلك أيها المصرى الكريم، واشتركت فى هيئة من جمعيات البر، فإنك لن تجزع ولن تحزن ، ولن يؤنبك ضميرك إذا ما امتنعت عن إعطاء السائلين فى الطرقات . وأما إذا استمر أفراد الشعب فى الاحسان جزافا و بغير انتظام ، واستسهل دفع القرش بدل تحمل مضايقة السائلين وبدل الارتباط بدفع مبلغ معلوم ، فإنهم يقفون فى سبيل المصلحين ، بدل أن يعاونوا الحكومة ويساعدوها فى القضاء على هذه الرذيلة .

اضرب مثلا من سخاء المصريين فى الاحسان ما يصرف فى القرافة . نرى من الواجب اكرام القائمين على شئون المقابر ، ونبرر صرف الاحسان باعتدال فى هذه المناسبة وأن من اللائق وضع شىء من الزهور والرياحين على القبور .

ولكن المغالاة فى غير ذلك من اقامة الموائد والاسراف لا نرى لها مبررا ولا مثيلا فى البلاد الأخرى وها نحن نعيش بيننا جاليات أجنبية مختلفة لم نشاهد عندها شيئا من هذا .

ووجه الغرابة أن الأغلبية الساحقة من المتنورين يقاومون ذلك بالاقلال و يودون الإقلاع عن هذه العوائد ولكن الكل يخشون الانتقاد وملامة اللائمين . ولو نظم جمع نصف ما يصرف فى هذه الوجوه لكفى لإنشاء جملة ملاجئ لإيواء الفقراء والبائسين .

توجد مسائل أخرى نرجئ بحثها لفرصة أخرى لضيق المقام . وأنوه فقط بأن النساء اللاتى يحملن الأطفال أو يصطحبنهم للتسول فى الشوارع يأتين عملا شائنا مؤلما خاليا من الرحمة والانسانية ، فيه كثير من القسوة على الأطفال، مؤذ اجتماعيا ، لأنه يعود هؤلاء على التشرد وممارسة التسول من صغرهم . وفيه مذلة لنفوسهم لا نجد له مثيلا فى أى بلد آخر .

سليمان عزمى